المصدر: روزاليوسف
التاريخ : ١٥ اكتوبر ٢٠٠٥

لماذا يدفع كل العرب ثمن أخطاء بعض العرب

بعد أيام، وتحديدا فى 25 أكتوبر، يصدر تقرير «ديتليف ميليس».. رئيس الفريق المكلف من الأمم المتحدة بالتحقيق فى جريمة اغتيال رئيس الوزراء اللبنانى الراحل رفيق الحريرى. لا أحد يعرف ما الذى يمكن أن يقوله التقرير، ولا ما هى الحقائق المروعة التى قد يكشفها، وأيا كانت نوعية التسريبات التى تتناثر هنا وهناك حول ما يحتويه التقرير.. فإن فى صفحاته قنبلة دفينة.. لا ينبغى أبدا أن نسمح لها بأن تنفجر فى وجه المنطقة.. مسببة كارثة جديدة. كفانا فاجعة العراق.. ليس فى استطاعة أحد أن يحتمل فاجعة أخرى فى دولة هنا أو هناك.. لاسيما أنه لا توجد قضية مبدئية يمكن أن يدافع عنها أى فريق.. بل جريمة اغتيال آثمة.. من الضرورى أن يتحمل المسئولون عنها، أيا كانوا، مسئولياتهم.. دون أن يورطوا أمة كاملة فى تبعات أفعال لم تردها الأمة.. أو أى من دولها.

لم يطلع أحد على التقرير، ومن ثم فإننى لا أجترئ وأقول أننى أعرف مضمونه، ولا حتى شذرات منه، لكن الصحف هنا وهناك تكتب ما يبدو أن له بعض أساس من حقيقة.. ولا نظن أنه يمكن فى عالم اليوم إخفاء تفاصيل أية مؤامرات

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

من أى نوع.. صغرت أم كبرت.. ليس فقط لأن هناك شهودا يتطوعون للإدلاء بما لـديهم كـى يحموا رقابهم.. ولكن لأن التكنولوجيـا الحديثـة جعلت كل الاتصالات مكشوفة.. وكل المعلومات متاحة.. وكل التفاصيل موثقـة. ولنفـترض أن هناك مسئولا أو أكثر فى دولة مـا قـد تخطـى حدود دوره.. وتجاوز القانون.. ما الذى يجعـل دولته تتحمل وزر أفعاله.. ولنفترض أن شخصا ما صار قيد الاتهام.. ما الذى يمكـن أن يجعـل منطقة بالكامل تدفع ثمن رعونته! ومن ثم، فـإن على العقلاء فى العالم العربى أن يهيئوا المنـاخ حتى لا تحدث فرقعة مدوية.. وبحيث يتحمل كل شخص مسئولياتـه دون صـياح أو صـخب.. وبحيث يأخذ القانون مجراه.. وبدون أن يحـاول طرف ما أن يصطدم بالقواعد الواضحة للنظـام الدولى الجديد. العالم اختلف، وتغير، ولـم تعـد الدنيا هى تلك التى كـان عليهـا الوضـع فـى الخمسينيات والستينيات. لكن البعض - أفـرادا ولا نقول دولاً - لم يزل يتخيل أنـه يمكـن أن يتعامل مع مفردات العصر الحالى بأدوات زمـن مضى وتبدل. كان من الممكن فى ظـل منـاخ الحرب الباردة أن تعبث دولة مـا، وأن توظـف فريقا من المنظمـات السريـة، وأن تستضيـف مطلـوبين للمحاكمـات الدوليـة، وأن تأمرهـم بعمليات من أنواع مختلفة، وأن تكون هناك دولة ما فى المقابل تمـارس عبثـا مناقضـا، عبـر

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

منظمات سرية مختلفة وأفراد عصابات آخرين. لقد كان هذا خطأ، لكن مساحات النظام الدولـــى القديم كانت تتيح القيام به، وحين لم يعد هناك فى العالم سوى قوة واحدة عظمى.. وانتهى التنافس القطبى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى..

تغيرت المعايير وتبدلت القواعد.. وصار للعبـــة قانون جديد لا يمكن أن يسمح بأفعال تمـــر دون عقاب. مساحة المناورة فى نظام انتهى لم يعد لها وجود، ومن لم يستطع استيعاب هـــذه الحقـــائق، تدوسه آلية القوة الضخمة.. خاصة حين لا يجـــد أحدا يمكن أن يسانده فى مواقف غـــير قانونيـــة وأدت إليها دوافع ذاتية، وتمت فى إطار حسابات ضيقة بلا أفق وبلا إدراك للعقبـــات والعواقـــب والنتائج الوخيمة. ليس على الأمة أن تدفع ثمـــن عدم انتباه البعض لمتغيرات العصر. ولا تنقصنا فاجعة جديدة.. فالعراق انهار.. ووحدتـــه محـــل شك .. وأراضيه متفجرة.. وطوائفه تتصـــارع.. وأقاليمه محتلة.. والأمن القومى للأمة العربيـــة عانى بسبب ما جرى فى بـــلاد الرا فدين مـــن صدمة مروعة.. والشعوب العربية لم تتخط بعد أبعاد الكارثة التى أدت إليها حماقات متوالية قام بها نظام صدام حسين.. الذى صـــرخ ومـــارس الصخب وصدع كل الرءوس بمواقف هلام ية.. ثم تبين أنه كيان هش.. سقط فى لحظات.. وفـــر من دفعوه إلى هذه الكارثة القومية! نستطيـــع أن نجادل بالطبع ونقول إن أمريكا لم تكن لديها أدلة

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

قوية على امتلاك العراق لأسلحة دمار شـــامل.. أو أنه كما زعمت كان على علاقـــة بتنظيمـــات الإرهاب.. وأنها كانت ستحارب وتقتحم العـــراق فى كل الأحوال.. لكن صدام حسيـــن ونظامـــه الأرعن أعطاها ألف فرصة ومبرر لكى تمضى فى اتجاه السيناريو الذى أرادت تطبيقه.. فما بالنا – إذن – إذا جاء تقرير «ميليس» وحمل اتهامات محددة وموثقـــة تجـــاه عـــدد مـــن الأشـــخاص والمسئولين هنا وهنـــاك. إننـــا لا نـــدعو إلـــى الرضوخ، والاستسلام، فمن حق الجميع، ومـــن حق كل الدول أن تحافظ على كرامتها وســـيادتها ومكانتها فى النظام العالمى.. ولكن وفق قواعـــد هذا النظام.. وأن تحفظ حقها بالقانون وأن تدافع عن نفسها تجاه أى اتهام.. وأن ترضـــخ أيضـــا للقانون.. وفى عالم القانون يكون الرد على الأدلة بالأدلة.. وليس باللجوء لأساليب إثارية مفتعلة.. أو تقمص حالة الاستشهاد.. خصوصا إذا كـــان من يخترق القانون بضعة أشـــخاص.. وليســـت الأمة.. أو حتى عـــدة دول.. أو دولـــة واحـــدة. الجميع الآن يدرك أنه بعد فاجعة العراق صارت هناك حقائق جديدة وواضحة وضوح الشمـــس. فأولا: صار التواجد العسكرى الأمريكـــى فـــى المنطقة فوق كل تصور كان يمكن تخيلـــه قبـــل حرب العراق. وثانيا: لـــم يعـــد هـــذا التواجـــد مقصورا على عدة قواعد فى الخليج.. وإنما فـــى قلب العراق.. وفى قواعد فى تركيا.. فضلا عن

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأساطيل المتحركة فى البحر المتوسط. وثالثا: لم تعد هناك توافقات كاملة يمكن حشدها بين كل الدول العربية.. إذ إن لكل دولة حساباتها المصلحية الخاصة. ورابعا: صارت أمور كثيرة من دقائق وتفاصيل المنطقة خاضعة لجداول أعمال مجلس الأمن. وخامسا: لم يعد من الممكن تخيل أن تناقضات ما قبل حرب العراق بين أوروبا والولايات المتحدة قد يكون لها تأثير فى حسابات ما بعد حرب العراق. وأضف إلى ذلك وفوقه التغيير الدراماتيكى الذى حدث فى لبنان.. وفى فلسطين. العالم تغير.. والمنطقة تغيرت.. والقواعد اختلفت.. وليس على الجميع أن يدفع ثمن أخطاء بضعة أشخاص لم يدركوا حقيقة أن كل هذا قد حدث.

عبد الله كمال

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية